الأحـــــــــد 18-11-2007

79- ماهيـــــــــــــة الوجـــــــــدان وتطـــــــــــوره (3)

مقدمة (3/3): عن الوجدان، والحزن

استهلال

قدمنا أمس (يومية 17-11 **"كيف لا نحبس الظاهرة فى لفظها؟")**، وفى بعض حوار أول أمس **(يومية 16-11 "بريد حوار الجمعة")**، ومنذ بدأنا فى تقديم هذا العمل (يومية 14-11 **"ماهية الوجدان وتطوره")**، إشارات محدودة للخطوط العامة لكيفية التعامل مع هذه الأطروحة (النظرية): حوارا ونقدا، صبرا وسماحا وقبولا ورفضا، وانتهينا إلى ضرورة البدء **مما هو نحن**، مما رسخ فى وعينا بلغتنا (ونضيف الآن: بالعامية والعربية)، كما نبهنا إلى **التوصية بالعدول - ما أمكن ذلك - عن البدء بالمستورد، وأيضا عن السجن داخل صنم لفظ تجمّد،** أو اختُزل ليخنق الظاهرة فيما شاع عنها، هذا هو السبيل الوحيد إذا كنا نأمل فى حوار حقيقى، نحن فى حاجة إليه، وهم كذلك، مهما اختلفت مواقفنا الحالية على مدرج التقدم/التأخر.

يمكن اعتبار هذه اليومية بمثابة الجزء الثالث من المقدمة.

... عن الوجدان

لفظ **"وجدان"** هو مصدر من فعل "وجد" (بفتح الجيم وكسرها: وجَدَ، وجدَ) ويختلف مفهوم ومشتقات هذا الفعل واستعمالاتها باختلاف رسمه، وتشكيله، وحرف الجر الملحق به، ثم السياق الوارد فيه.

فهو يتضمن أبعادا متعددة فى مجالات مختلفة، لكنها متداخلة بالضرورة:

1 - ففى مجال ماهو **انفعال/عاطفة،** نجد أنه قد يعنى

(أ) **الحزن:** وَجَدَ فى الحزن وجدا، وتوجَّد لفلان: حَزنَ له، وبدون حرف جر: أنا أجد وجدا: وذلك فى الحزن (أيضاً). كما يعنى:
(ب) **الغضب:** وَجَدَ **عليه** (فى الغضب)، فى الحديث: إنى سائلك فلا تجد على.

كذلك يعنى:

(جـ) **الحب:** وجد **به** وجدا، فى الحب، وله بها وجد: وهو المحبة. وأيضا

(د) **الكراهية:** أوجده **على** الأمر: أكرهه.

2 - وفيما يتعلق بمعنى **المعرفة والتبيّن:** نجد أنه يستعمل عادة بلا حرف جر: **وَجَدَ زيدا ذا الحفاظ، "ووجدك عائلا فأغني"،**

وقريبٌ من هذا **معنى العثور** على، أو الحصول على: **أوجده الشىء** جعله يجده: **يظفر به.**

3 - لكن ثَمَّ معنى يتعلق **بالإبداع والخلق:** أوجده الله: أنشأه من غير سابق مثال،

وهو أقرب إلى الوجود بما هو ضد العدم، **وجد:** خلاف **عدم.**

4 - وتمتد المعانى إلى ما يتضمن ما هو أكثر عيانية فيما يتعلق بالإشارة إلى: **السعة، والكثرة، والبسط،** ومن ذلك:

أوجده الله: استغنى غِنًى لا فقر بعده،

5- ثم الوجد **السعة** "أسْكِنُوهُم من حيث سَكَنْتم من وجدكم"،

6- وأخيرا **فالوجد: منقع الماء.**

فإذا كان لفظ الوجدان يحمل كل تلك المعانى فكيف نرضى أن نقصره - حتى كمصطلح علمى - على استعمال محدود حتى لو **أقره المجمع اللغوى** اصطلاحيا حين يقر أن "الوجدان" هو:

أولا: كل احساس أوّلى باللذة أو الألم،

وثانيا: الوجدان (يدل) على ضرب من الحالات النفسية من حيث تأثرها باللذة والألم، فى مقابل أخرى تمتاز بالإدراك والمعرفة!!

فإذا انتبهنا إلى المحاذير التى قدمناها فى بداية هذا البحث راعنا تصور الآثار التى يمكن أن تترتب على أى استعمال ضيق مثل الذى أجازه المجمع، وهو يُبْعد لفظ الوجدان بكل إيحاءاته السابقة وشموله المترامى عن أى معنى سوى هذا التعريف الأخير الخامل،

الخوف هو أن ينفصل لفظ "الوجدان"، إذا ما فعلنا ذلك عما هو نبض إنسانى أعقد تركيبا وأشمل إحاطة، وأعلى ولافا،

ثم هو (الوجدان) سوف يُثْلَمُ كأداة معرفية أسبق عن، وأحد من، ما يسمى تفكيرا (تجريديا)، كما يثبت باضطراد من العلوم الأحدث فالأحدث، فضلا عن الممارسة العملية على أرض الواقع.

ثم أين يذهب تاريخ اللفظ وتوجّهاته المعقدة المتضفرة فى ذات اللفظ بين **الدفع العاطفى المتعدد التوجه، المختلف الاتجاه وهو يتحرك بين الإبداع من العدم، مغلّفا بالقدرة المعرفية المدركة إدراكا سبقيا، متصلا بالسعة والقوة والرؤى والطمأنينة؟؟**

ألا تتجلى كل هذه المعانى والإشارات والتضمنيات فى حركية اللفظ مما سجلته بضعة معاجم؟ فما بالك بتاريخه الحقيقى حتى تضمن كل ذلك، وغيره؟!!

أفلا يشير ذلك إلى أننا لو رضينا بالاستعمال الضيّق للفظ الوجدان بهذه الصورة المختزلة فإننا نتنكر لحقيقة اللفظ وتاريخه؟

ألا يبعدنا هذا الاختزال عن الظاهرة التى نشأ اللفظ أصلا مواكبا لها فى محاولة احتوائها أو الدلالة عليها؟، وهى ما نحاول التعرف عليه؟

لا يحتجّ محاور بأن الاستعمال الأدبى والعام شئ، فى حين أن الاستعمال الفلسفى والعلمى شيء آخر، لأنه إذا جاز هذا الفصل فى العلوم البحتة، فهو لا يجوز إطلاقه فى العلوم الإنسانية، والنفسية خاصة، ثم إننا بهذا الاختزال - حتى بتوصية المجمع - إنما نلصق لفظا عريقا كلافتة على ظاهرة لم نتبين معالمها أصلا، بدلا من أن نستلهمه لما ينبغى أن نبحث فيه، **لأن اللفظ إذ نشأ وتطور، إنما نشأ وهو يلامس ظاهرة ما، ثم هو يحاول احتواءها، فيكشف ويكتشف تعدد وجوهها، وثراء عطائها، فيتحرك فى سياقات متعددة ومتنوعة، ثم يلحق به حرف مساعد، أو تسبقه أداة موضحة، فيقترب ويبتعد، ويجتهد لاحتواء مضمونٍ مناسب لما يريد وصفه، ثم يعجز - عادة- فتفيض عن حدوده تولّدات الظاهرة الأرحب، فيلاحقها باستعمال جديد، أو يساعده لفظ جديد، وهكذا.**

ولقد قلنا سابقا (أمس) إن الظاهرة أسبق من **تسميتها**، ولكنها ليست بالضرورة أسبق من **لغتها الأساسية**، ذلك أن **التركيب اللغوى الغائر هو أسبق من التحديد اللفظى** (المعجمى بالذات) - ونذكر القاريء هنا أيضا أن التحديد اللفظى المتنوع فى السياق هو أسبق من التحديد العلمى المصطلحى، لكن التحديد العلمى فى هذه المنطقة بالذات من العلوم النفسية - يرتد بالأثر المختِزل والمشوِّه لما هو أشمل لغة وأرحب وجودا.

يجدر بنا إذن أن نشير هنا إلى محاولة إبداعية عربية (محدودة ومبتورة) اتخذت من هذا اللفظ (وجدان) منطلقا لتقديم ما أسمته **ثورة فلسفية**، ولا أقول إن هذا اللفظ بمدلولاته اللغوية هو الذى أوحى لصاحب هذه المحاولة بانطلاقته المبدعة، وإنما أرجح أن صاحب هذه الفلسفة حين نبض برؤيته التى تجاوزت اللغة السائدة، إذا به يجد نفسه يقترب من أصول لغته ليلتقى بأقرب ما يمكن أن يضمنه خبرته، وهو لفظ الوجدان المتعدد التوجه، والحاضر حضورا شاملا فى أكثر من مجال وسياق، ومع تفاعل الباحث مع لغته، استطاع أن يعيد النظر، وأن يجدد، وأن يضيف، وأن يجتهد، وأن يتخطى سجن الساكن والمستورد جميعا، وأهم ما فى **فلسفة تيسير شيخ الأرض** هذه **(بما** عليها) أنها تقرر ضرورة الرجوع إلى الوجود، لا القناعة بالمجردات العقلية، حيث "الوجدان أصل الذات التى

يكون العقل جانبا من جوانبها" - ولن أتطرق هنا إلى استعمالات الفيلسوف لكلمة "الوجدان" والتى بلغت أكثر من ستين استعمالا أصيلا، من أول أنه **"القبض على الوجود"** إلى أنه **"الذات الأخلاقية إذا ما أضيف إليها القوة البديعية حيث يصبح الخير والجمال مضمونه النزوعي".**

الخلاصة:

أردت من كل ذلك أن أؤكد أن حوارنا مع لغتنا فى حركتها الحرة هو الذى يسمح لأفكارنا الجديدة أن تجد ما يحتويها، ولو نسبيا، أما اختصار رؤانا ومشاعرنا إلى أقرب لفظ استعرناه ممن سبقنا من أبناء لسان آخر، فهذا هو ما كتبت هذه الدراسة - ابتداءً - لأحذر منه حتى لو كانت سلطة الاختزال هى مجمع لغوى، أو مرجع علمى، أو إجراء بحثى، فحين عاد تيسير شيخ الأرض (على ما هو) إلى أصول لغته فى نبض جسده محييا تاريخه: قبض على وجوده (على حد تعبيره) فأبدع وأضاف غير هياب (وإن كان قد شطح حتى تجمد)،

إن استعمال لفظ الوجدان - كمثال- فى حدود الوصاية المصطلحية أو المعجمية الأحدث إنما يختزل اللفظ حتى يضمحل عطاؤه الأصلى، فينكمش بلا فاعلية، وتنطمس معالمه حتى يعجز عن الإيحاء والإشارة إلى الاتجاهات التى سبقت الإشارة إليها عبر تاريخه التضمينى الطويل، وكذا إلى الاتجاهات الواعدة المتجددة حسب حركتة المبدعة.

فماذا عن "الحزن"

إذا كان لفظ "الوجدان" ليس شائعا فى الاستعمال اليومى لدى عامة الناس، وقد أثبتنا - بمراجعته - الفرق الشاسع بين تاريخ تضميناته وشمول إيحاءاته وتنوّع تجلياته، وبين قصور تعريفه المصطلحى، فنحن لم نستطع أن نبين مدى أثر هذا الاختزال أو التشويه على الكيان الأعمق لمستعمليه، ذلك لأن الإعلام - مثلا - لا يقحمه علينا بإلحاح ولا حتى أحيانا، كما أن الناس - عامة الناس - لا تتداوله بما يظهر مخاطر اختزاله، لذلك لزم لكمال هذه الدراسة أن ننتقى مثالا آخر أكثر تواترا بين الناس، وسوف أحاول ذلك أملا فى كشف بعض **حركة الإغارة والإحلال التى تجرى ليحل لفظ مصطلحى ساكن، محل لفظ متحرك مرن متفجر، فى حياتنا اليومية**، ومن ثم فى تحوير لغتنا (وجودنا) دون وعى كامل أو اختيار مسئول، وقد اخترت لذلك تناول الظاهرة المتضمنة فيما يسمى **"حزنا"** فأقول:

شاع مؤخرا أن الحزن هو شيء مرفوض من حيث المبدأ، وأنه - دائما - نقيض الفرح أو الطمأنينة والسعادة أو الرفاهية أو كل ذلك .. ومع انتشار هذه الشائعة، على مستوى "التصريحات النفسية" خاصة، أخذ لفظ "الاكتئاب" يحل محل لفظ الحزن رويد رويدا، حتى كاد أن يصبح أى حزن مهما كان حفزه، أو نبضه، أو اتجاهه، أو توليده، أو غائيته، أو مضمونه، أصبح أى حزن وكل حزن مطالبا بأن يقبع داخل حروف اللفظ الجديد "اكتئاب" - ومع أن ظاهرة الحزن هى أعمق

وأرسخ وأقدم وأدق من كل وصف حاول أن يلمها أو يحتويها أو حتى يحوم حولها، فإن حضورها اللغوى الأصيل قد استطاع أن يقترب من حقيقتها بشكل أو بآخر، **ولكن حين تسلل لفظ "الاكتئاب" زحفا على نبضها خَنَقَها أو كاد،** فقد تضخم هذا اللفظ (الاكتئاب) وألح (بالعلم والإعلام معا) حتى كاد يطمس كل ما عداه، فينعكس هذا كله على الكيان اللغوى للظاهرة الأصلية **حتى يخل - بالتالى - بحقيقتها أو يشوه جوهرها، بتحريكها إلى ما ليس هو، أو قل: بتسكينها فيما ليس هى،** وهذا خليق بأن يجمد المسيرة الإنسانية فى ارتقائها الحيوى والرمزى معا، لأنه ناتج عن وصاية مفتعلة، وليس عن جدل طبيعى خلاق.

ما هى حقيقة ما هو "حزن" فى عمق وعينا؟

الحزن - فى عمق أصوله - هو جزء لا يتجزأ من طبيعة الوجود البشري: مواجهة فدفعا، ولا أميّز هنا بين حزن دافع وحزن معجّز، لأن طبيعة دورته تجعله يتناوب بطأً وإسراعاً، وضوحاً وخفاء، فى ظاهر السلوك بما يوحى بمثل هذه التفرقة التى إن صحت، وصحيح بعضها، فإنها لا ينبغى أن تكون تكئة للاستسلام **العام** لكل ما هو حزن تحت ضغط الإعلاء من مطلب "الرفاهية" كمرادف للصحة والسعادة، بل.. و .. والحضارة (كما شاع مؤخرا)، وبالتالى، ورغم التفرقة السابقة التى ننساها من إلحاح التشويه المنظم للظاهرة الأصل، نستقبل أى حزن باعتباره ضد هذه القيم جميعا (الرفاهية/ الصحة/ الاسترخاء الحضارى.. الخ) ويتسحب لفظ الاكتئاب بديلا زاحفا يكاد تمتلىء به الساحة.

... عن "الاكتئاب":

ثم نرجع لإلقاء نظرة سريعة على ما يقال له **"اكتئاب"** كما تجمد داخل المصطلح العلمى أولا،

فنجد أنه **"الإحساس بالحزن وسوء المزاج"،**

أو أنه:

"صعوبة فى التفكير.. وكساد فى القوى الحيوية وهبوط فى النشاط الوظيفى"

أو أنه:

"الشعور بالعجز واليأس وعدم الكفاءة والحزن"،

وهذا كله صحيح بدرجة ما، وفى حدود ما،

فإذا انتقلنا إلى كيف عرضت المعاجم للفظ **الكآبة،** نجد أنها:

أكدت على الكم:

"الكآبة هى **شدة الهم والحزن"،**

وبعضها أكد على ما هو كسر وانكسار

"الـكـآبـة: **سوء الحال والانـكسار من الحزن،**
واكتـأب: **حزن واغتم وانـكسر،**
وأخيرا فـقـد تـصل الـشـدة والـكـسرة إلى الهلـكة"
أكـأب: **"وقـع فى هلـكة"**

فشروط الاكتـئـاب لـغـة - مـن الـشـدة والـكـسرة والهلـكة - تـبـدو لازمـة بمـا لا يـترادف مـبـاشـرة وبـلا تحفظ، مـع مـا هـو حـزن (تـعـمـيـمـا).

استسهال وسوء استعمال

إلا أنـنـا مـن واقـع سوء الاستعمـال وفـرط الاستسهال رضيـنـا بهذا الإحلال، **حتى أصبح كل ما "يـكـدر المزاج" أو "يـهـدد الـرفـاهـيـة" مـهـمـا كـانـت درجته أو وظيفته هو كـآبـة،** وبـالـتـالى فـهـو مـرفـوض، خـاصـة بـعـد أن انـسـلـخ عـمـا هـو حـزن بمعناه الأصلى،

ثم إن المسألـة لـيـسـت فى الـتـأكـيـد عـلـى أن مـا هـو حـزن هـو أقـل شدة مـن الـكـآبـة أو أصلب عـودا، بـل هـى فى محـاولـة بـيـان أن الحـزن هـو لـفـظ آخـر لـه مـضمـون أشمـل، قـد يحـتـوى بـعـض هـذه الـصـفـات جميـعـا وغيرها، وضـدهـا أحيـانـا.

عودة إلى الحزن فى المعاجم

وبـاسـتـشـارة المـعـاجـم كـمـنـطـلـق (ولـيـس كـمـنـتـهـى) نجـدنـا نـكـاد لا نـرضى ابـتـداءً بـوصـف الحـزن بمـا هـو مـقـابـل نـقـيـضـه، بـاعـتـبـار أنـه لا يـنـبـغـى أن نـتـعـرف عـلـى الحـزن عـلـى أنـه: **"نـقـيـض الـفـرح وخلاف الـسرور"** ذلـك أن لـفـظ الحـزن، وخـاصـة إذا مـا أخـذنـا فى الاعـتـبـار تـنـويـعـايـتـه الـتـشـكـيـلـيـة، إنمـا يـتـضمـن غـير قـلـيـل مـن إيحـاءات الجـديـة والـقـوّة والـدفـع بحـيـث يـصـعـب فـصـل هـذه الايحـاءات عـن مـتـضمـنـه الـعـاطـفـى (الانـفـعـالى/ الـوجـدانى)،

فـالحزن أيـضـا:

ضد الـسهـل المـنـبـسط، (حزن المـكـان حـزنـا: خـشـن وغـلـظ،)
والحزن: مـا غَلُظَ مـن الأرض،
والحزن فـيـه **مـواجـهـة وعـنـاد ولـقـاء وشـدة**
"شيخٌ إذا مـا لَـبِسَ الـدرعَ حَرَنْ، ... سَهْلٌ لمَنْ سـاهَلَ حزْنٌ لـلحَزنْ"،
إذن، فـلـيـس فـيـمـا هـو حـزن: كـسرة، أو هـلـكـة فـقـط،
ولـيـس فـيـمـا هـو اكـتـئـاب حـفـز أو مـواجـهـة أو عـنـاد أو قـوة،

لـكـن الخـلـط يمضى فى ازديـاد، والـزحـف لا يـتـوقـف، حتى دخـل الـلـفـظ المـقـابـل لـلاكـتـئـاب، بـالإنجـلـيـزيـة Depression إلى الاستعمـال الـيـومـى عـنـدنـا مـعـرَّبـاً حتى أصبح كـثـير مـن الـنـاس يـتـحـدثـون عـن مـشـاعـرهـم الـعـاديـة بـأن **عـنـدهـم الـيـوم "دبـرشـن"** قـلَّ أم كَـثُـر، حَفَـزَ أم كَسَرْ،

وبـالـرجـوع إلى لـفـظ Depression فى الـلـغـة الإنجـلـيـزيـة (الـوصـيـة الأولى عـلـى وجـودنـا المـسـتـعـار) نجد أن هـذا الـلـفـظ إنمـا يـفـيـد أسـاسـا مـعـنى الحـزن فى أسـطـع صـوره، ومـعـنى الهـبـوط فى شـكـلـه الـعـيـانى (إلى أدنى)، ومـعـنى الـعـتـامـة Gloominess والهـمـود،

وحتى فى الاسـتـعـمـال الاقـتـصـادى الاجـتـمـاعـى هـو يـشـير إلى ركـود الـسـوق والـبـطـالـة، ولـيـس هـذا مجـال الـتـطـرق إلى تـفـصـيـل تـاريـخ

هذا اللفظ بالإنجليزية، أو علاقته ببعض مترادفاته أو مواكباته من ألفاظ أخرى مثل Dejection أو Boredom أو Grief فكل هذا قد ينحرف بنا إلى استطراد مسهب يخرج عن هدف هذه الدراسة، لكننى أشرت إلى اللفظ الإنجليزى لأنه مصدر الإغارة الزاحفة إلى لغتنا العلمية أولا، ومنها إلى لغتنا اليومية، حتى كاد يصبح هذا اللفظ الأجنبى بأصوله وحدوده هو الوصف المقرر الذى يحدد حركة مشاعرنا، **كل هذا ونحن مستسلمون لوهم دقة المصطلح العلمى وإلحاح الملاحقة الإعلامية.**

لكن المقاومة الواعية ضد هذه الإغارة المنظمة من خلال حالة الشعر التى تتحمل مسئولية المواجهة العنيدة للحفاظ على لغتنا بتحريكها من أصولها الغنية إلى وعودها المترامية، وأقول **حالة الشعر** مستعيرا تعبير صلاح عبد الصبور حتى لا يقتصر الأمر على **قرض الشعر،** ثم أستشهد به شاعرا فى مواجهة ما هو حزن فى قصيدته **"أغنية إلى الله".**

(1)

حزنى غريب الأبوين
لأنه تكّون ابن لحظة مفاجئة
ما مَخَّضته بطن
أراه فجأة إذ يمتد وسط ضحكتى

الشاعر يبدأ بأن يكتشف فى الحزن قدرته على ذلك الحضور المفاجىء، الذى لا ينفى تراكما سابقا صامتا، وهو أيضا فى هذا المقطع يعارض ذلك الاستقطاب المعجمى الذى يضع الحزن والفرح على أقصى طرفين متباعدين متضادين، فهو يكتشف حزنه ممتدا وسط ضحكته، ثم يروح يصنف الحزن كما عاشه، (يعيشه) لاكما فرض عليه (أو استورده).

(2)

لقد بلوتُ الحزن حين يزحم الهواء بالدخان
فيوقظ الحنين

ويهمّنى هنا - رغم تحفظى فى نقد سابق - فعل "يوقظ"، وإلى درجة أقل "الحنين"، لما فى ذلك من إشارة إلى قدرة الحزن على الحفز والبعث، ثم إلى ارتباطه بالعلاقة بالآخر - وكل ذلك يتنافى مع ما يشيع عن الحزن (بعد زحف الاكتئاب المصطلحى عليه) من إعاقة وهبوط هامد، وهو يفتح وعينا لحركته المتحدية الأقوى.

(3)

ثم بلوتُ الحزنَ حين يلتوى كأفعوانْ
فيعصر الفؤادَ ثم يخنُقُهْ
وبعد لحظة الإسار يَعْتِقُهْ

وهنا يجدر بنا أن نستعيد ما ذهبنا إليه لنؤكد - من واقع لغتنا العربية - هذه القدرة الطاغية التى يتمتع بها الحزن (هذا الحزن) فى إغارته المتمكنة على حركية المشاعر.

(4)

ثم بلوتُ الحزن حينما يفيض جدولا من اللهيب

ومن جوف هذه النار المتدفقة (جدولا)... يشرق الجديد نورا بعثا:

(5)
يتجمع فى إشراقة الغد
(6)
ثم يمر ليلنا الكئيب
ويشرق النهار باعثا من الممات
جذور فرحنا الحبيب.

أخيرا، ولأول مرة يستعمل صلاح لفظ "الكئيب"، فى زمن يمضى، دون مواجهة؛ وفيما يتعلق بما هو "ممات"، وكأنه قد التقط ما فى لفظ الكآبة من فراغ ساكن، بالمقابلة بما استشعره فى الحزن من حركة باعثة، حتى أنى رجحت أن جذور هذا الفرح لم يَرْوِهَا إلا نهر الحزن، فدبت الحياة فى الكآبة الممات:

(7)
لكن هذا الحزن مسخ غامض غريب

وهكذا واصل الشاعر مواجهته للظاهرة فى حركتها الجدلية المولِّدة، فتبين له بعد آخر، لعله النقلة بين ما هو حزن، وما هو اكتئاب، حين يعجز الأول أن يبعث، أن يولد، أن يفجر، فلا يعود حزنا، أو هو حزن لم يألفه، لا يعترف به، وكأنه يرفض - معنا - أن يكون هو حزننا الذى يحركنا، فلعله الحزن المفروض علينا شائها، أو مستوردا، أو مجهضا، أو عنينا:

وبعد

بنظرة متأنية فاحصة لجدل الشاعر مع لفظ الحزن وهو يعايش الظاهرة المحتمل أن يحتويها، نجد أنه نجح بدرجة مناسبة فى أن يعيد تخليق التراكيب اللغوية المتضفرة، والمتآلفة، والمتناقضة، والمتعاقبة، والمتبادلة، بأمانة مغامرة دون أن يركن إلى مضمون سابق، أو يحبس نفسه فى ايحاءات مصطلح ساكن، أو معجم خامل،

فهكذا الشعر.
مقتطف من شعر الكاتب

وقد يكون مناسبا أن أعرض لمحة من خبرة خاصة **حين هاج بى الوجد شعرا فى مواجهة ما يلقيه مرضاى فى وعيى وخاصة حين يرفضون، وأرفض معهم، أن تُخْتَزَل خبراتهم إلى مصطلح تشخيصى عاجز،** أقول هاج بى الشعر فرحت أصف الحزن من خلالهم، وخلالى، قائلا:

يتحفز حزنٌ أبلجْ
حزنٌ أرحب من دائرة الأشياءِ المنثوْرة
الأشياءِ العاصِيةِ النافرةِ الهيْجَى
حزنٌ أقوى من ثورة تشكيل الكلماتْ
حزنٌ يصرخ بكَماَ

يُشرقُ ألماَ
حزن يستوعب أبناءَ الحيرةْ
يجمع أطراف الفكرةْ
يوقد نار الأحرف والأفعال
حزنٌ يحنو، يُدْمِي، يُلْهب، يَصْرخ،
يحيى روحا ميتة ضَجِرَةْ.

يحيى الرخاوى 6-5-1982

أكتفى بهذا القدر، لأنى قصدت إلى عرض مثال متواضع لعله يبين كيف يقوم الشعر بثورته على محاولة سجن المشاعر والظواهر الأشمل داخل المصطلح اللفظى الساكن، ناهيك عن المصطلح العلمى القابض الشائع

وللأمانة فلابد من الإشارة إلى ما تحدانى فى اتجاه معاكس وأنا أراجع لفظ الحزن فى التنزيل الحكيم مما لا مجال لتفصيله هنا

بعض مترادفات الحزن

وقد يكون مفيدا بنفس الدرجة، أو أكثر أو أقل، أن ننتقل إلى بعض مترادفات ما هو حزن، نستلهم منها أبعاد الظواهر الإنسانية (النفسية) فى أصولها، لعلنا نتحمل مسئولية فحصها كما هى، وكما توحى به، لا كما نستورد شبيهاتها، بما تطمسنا فيه، ولا أجد متسعا فى هذا المقام لأستطرد مطولا، لذلك فسأكتفى بالإشارة إلى لفظ قريب وهام يبدو أنه شغل الشعراء الأقدم، كما شغل لفظ الحزن، الشعراء الأحدث، وفى نفس الوقت، فقد وجدت فى شكله وحركته ما يستلزم الإشارة إليه هنا كمثال توضيحى مساعد، ألا وهو **لفظ "الهم"،** بادئا بالعلاقة بين ما هو **"هم"** وما هو **"هِمَّة"**

عن الهمّ والهمة

الهم لغة ينتمى أساسا إلى العزم على القيام بأمر ما **"هم بالأمر ولم يفعله"**، لكننى لم أرتح للاستسلام

هكذا لشرط أنه لم يفعله، اللهم الا إذا أضفنا لفظ "بعد" أى أنه "لم يفعله بعد" - ذلك أنى حين عايشت اللفظ من الممارسة الذاتية والمهنية والإبداعية، **رجّحت أن ثمة علاقة خليقة بالعناية ما بين الهم بمعنى الحزن، والهم بمعنى العزم (على)، والهم بمعنى الشدة (بما يحمل معانى الجدية والصعوبة والقوة جميعا، المهمات من الأمور الشدائد)** - وكل هذا يقربنا أكثر فأكثر من المعانى الإيجابية التى استوحيناها من حركية لفظ "الحزن" فكلاهما (لفظا الحزن والهم) إنما يؤكدان كيف أن الظاهرة التى تشملهما أو تجمعهما أو يحومان حولها.. الخ، **هى ظاهرة تتحرك لغويا/كيانيا، من المواجهة إلى الألم إلى العزم إلى الشدة بما يشمل الخشونة والصلابة**، وكل ذلك يناقض معنى الكآبة (كما قدمنا) لغة ومصطلحا.

وأجده مناسبا هنا أن أعرج إلى إبن عربى كمثال **لمحارب صوفى فحل،** لم يحبسه عجز الكلام المتاح عن محاولة وصف خبرته الفيضانية المنطلقة، فراح يبتدع لغته المتجاوزة بكل إصرار

ومغامرة، وأجد فى هذا الاستشهاد ما قد يوضح بعض ما ذهبت إليه فى أول هذه الدراسة حين أشرت إلى أزمة المتصوف حين لا يجد لخبرته مايحملها - بأمانة واحاطة - من الألفاظ، اللهم إلا من خلال مثل هذه المغامرات الشعرية الخطرة.

الهمّة عند ابن عربى : قوة وطاقة محركة، وفيها يقول: **"إنها تتوجه كطاقة بحركة عشقية"** وأنها "تحمل صاحبها: تترقى فيترقى" - وكأن ثمة علاقة جدلية بين "همة" و"إرادة" الوصول، فيناقش ابن عربى مراتب الهمة من همة "تنبه"، إلى همة "إرادة"، إلى همة "حقيقة"، فيتدرج بذلك مع يقظة الوعى إلى تعاظم القدرة **(النفس إذا تجمعت أثّرت فى أجرام العالم)** إلى التكامل مع اللامتناهى **(جمع الهمم بصفاء الإلهام)**

وأكتفى بهذا المدخل الذى أوضحت من خلاله كيف حاول ابن عربى أن يطوعه لوصف درجات وعيه لأنبه أن الهم -هكذا- إنما يشير إلى ما يشير إليه ما هو حزن، مما يتواكب مع الوعى بآلام مواجهة الواقع بحجمه الموضوعى، وقد تصبح الصورة أكثر اقترابا فوضوحا إذا استشهدنا بموقف بعض الشعراء القدامى مما هو "هم" بالمعنى الذى رجح عندنا:

يقول ذو الرمة:

وكنت إذا ما الهم ضاف قَرَيْتُهَ
مواكبةً ينضُو الرعان ذِمَيلها

فالهم هنا يأتى ضيفا، فيكرمه الشاعر ويحسن وفادته، إذ يواكبه صبرا **وتقبلا وتحدّيا وترويضاً واثقا من أن تقبله لهَجْمَةِ الهمّ "الرعناء"، يمكن أن يحتويها تقبله الهادئ لها، ومواكبتها حتى تتراجع حدتها من حسن استقبالها، بهذا الموقف الواعى** وكم هو أرقى بكل قياس مما أصاب مشاعرنا ومواقفنا نتيجة لاعتبار كل "هم" عدواً مقتحما علينا أن نرفضه ونطرده، أو ننكره ونخفيه، مقارنةً بإكرام وفادته وحسن استقباله التى نتعلمها من ابن الرمّة، وهذا ما يجعلنى أعجَبْ كيف جعلنا الهم جسما غريبا ونشازا منفرا ينبغى التخلص منه أو إخفاءه، نفورا: ورفضا طول الوقت.

أما امرؤ القيس، فهو يلتقى بالهم، أو بأنواع الهموم، فى اختيار وجودى مواجه حين يرخى الليل - كموج البحر- سدوله

"علىّ بأنواع الهموم ليبتلى"،

أو: وامرؤ القيس يتلقى الهموم يهيجها الشوق روادعا **"وهاجَ بِىَ الشوق الهموم الروادع".**

أكتفى بهذا القدر مرجحا **أن هِمَّة ابن عربى فى ترقيها المتصاعد، ليست بعيدة عن هَمٍّ ذى الرمة الضيف المواكب، أو عن هموم امرؤ القيس المختبرة والروادع،**

وبعـــد

أردت بكل هذه المقدمة أن أنبه على أن البداية لابد أن

تكون من لغتنا الغائرة فى كياننا - وليس من المصطلح المجلوب إلينا - جاهزاً من ثقافة أخرى لها تاريخ آخر، هذا هو السبيل الصحيح للتعرف على حقيقة مشاعرنا وطبيعة وجودنا وحركية وجداننا، ثم التعامل معها فى الصحة والمرض.

أعتقد أنه يحق لى بعد عرض هذه الأمثلة أن أحدد ما ذهبت إليه فى بداية هذه الدراسة فى صورة **ترجيحات غالبة،** لابد وأن تحتاج إلى مزيد من البحث وإعادة النظر، ومنها:

1 - إن الظاهرة أسبق من لفظها.

2 - إن لسان كل أمة هو تاريخها الحيوى المتراكم فى عمق وجودها الآنى، ولغتها بالتالى هى منطلق معارفها فى مجال ما هو ظاهرة بشرية "معرفية/وجدانية".

3 - إن اللغة - حتى بحضورها المعجمى المحدود - فى حركتها الموحية، هى المصدر الأول (وليس الأخير) فى تحديد التوجه نحو ما ينبغى - ويمكن - دراسته من ظاهرات.

4 - إن الجدل بين هذا المصدر الأول، وبين الموقف المتجدد منه هو المجال الأصيل لتحريك اللغة وتوليدها، لاحتواء الوجود وتجديده، **وهذا هو الشعر.**

5 - إذن، فإن ما يسمى بالعلوم الإنسانية، والنفسية خاصة، ينبغى أن تستلهم مادتها من لسان أهلها، لا أن نستوردها ابتداء من "سلوك" أو لغة غيرها، كما ينبغى أن تستلهم منهجها من جدل الشعر، لا أن تنقله من قياسات الظاهر، وبهذا فقط: يمكن أن تؤصل وتضيف، لا أن تختزل وتعيق، **بما يفيد كل البشر هنا وهناك** وعلى مدى الزمن.